

# منزلة الحوار والتواصل في الفلسفة المعاصرة

الزواوي بغوره  
قسم الفلسفة، كلية الآداب،  
جامعة الكويت

**يعد** الحوار والتواصل مجالاً مميزاً للعلوم البينية، وملتقى لمختلف الحقول المعرفية، وفضاء مشتركاً للمهندس والسياسي واللغوي والفيلسوف. وإذا كان الحوار والتواصل يحتل هذه المكانة المعرفية، فالأن التواصل بين الأفراد والمجتمعات، أصبح مشكلة قائمة، ذلك أن مجتمعاتنا الحديثة تجد صعوبة في التواصل فيما بينها، وتحولت وحدتها الاجتماعية وانسجامها وتوافقها الأخلاقي وقيمها المشتركة الى موضوع نقاش واختلاف وتعارض ونزاع، وكفت القيم الرمزية عن تادية دورها التوحيدي، بفعل الاستعمال الايديولوجي والسياسي المفرط.

من هنا فان الحوار والتواصل، ياخذ صورة مزدوجة، انه يمثل مشكلة وحلا في الوقت نفسه، انه مشكلة من حيث ان المجتمعات المعاصرة تجد صعوبة في التواصل والحوار هذا ما تعبر عنه الاشكال المختلفة للوقاحة والعنف التي تخترق العلاقات بين الافراد والمجتمعات التي خضعت لعملية "تذيرير أو تفتت أو تفكك أو تشرذم Désenchantment" حسب عبارة عالم الاجتماع الالمانى "ماكس فيبر"، وهي عملية ناتجة عن فعل "العقلنة Rationalisation" الذي شمل مختلف المناحي الاجتماعية، وطرح مشكلة المرجعيات والقيم، التي تقوم على

حفظ الوحدة والتلاحم والانسجام في الجسم الاجتماعي. وبعد حلا ومطلبا ووسيلة مثلى لحل مختلف النزاعات والمشكلات والمرجعيات المختلفة. لانه، ياخذ صورة الخط الموجه الذي يقوم بتوحيد المتعدد والمتنوع والمختلف، ولانه يساهم في صياغة الاختيارات، وهوما يتطلب قواعد مشتركة بين الافراد والمجتمعات.

من هنا استنتج، عديد الباحثين والدارسين ان الحوار والتواصل، قد تحول في الثقافة المعاصرة الى نموذج ارشادي "Paradigme". وتعتبر اعمال الفيلسوف الالماني "هبرماس" على هذا التوجه، الذي جعل من الحوار والتواصل نموذجا معرفيا، افضل تعبير. على ان الامر لا يقتصر على المساهمة الكبرى لهذا الفيلسوف، لان هنالك مجموعة هامة من الفلاسفة المعاصرين الذين أولوا موضوع الحوار والتواصل اهتمامهم، وجعلوه محورا اساسيا في فلسفاتهم. وعملا على تقديم دراسة تحليلية وعملية لوضعية الحوار والتواصل في الفلسفة المعاصرة، فاننا سنحاول في هذا البحث دراسة اهم الاتجاهات الفلسفية المعاصرة المتصلة بموضوع الحوار والتواصل، وذلك بغية تحقيق هدفين. يتمثل الهدف الاول، في معرفة قضية الحوار والتواصل ومنزلتهما في سياق قضايا ومشكلات الفلسفة المعاصرة، ويتمثل الهدف الثاني في التعرف على مساهمة هذا الاتجاه الفلسفي المعاصر في مناقشة قضايا عصرنا. ولا يتسنى لنا ذلك الا بمسألة منزلة الحوار والتواصل والمحادثة في الفلسفة المعاصرة.

### أولا . في الحوار:

1. في التعريف: لا يميز الحوار تاريخ الفلسفة من حيث النشأة والتعليم فقط، بل اصبح موضوعا للتفكير الفلسفي في الفلسفة المعاصرة. ذلك ما تؤكد مساهمات فلاسفة امثال "مارتن بوبر" و"فرانس جاك" و"غدمار" و"هبرماس" و"ابل". كما تحول الى موضوع بحث ودراسة ظهر في شكل اطروحات ومقالات وكتب ودراسات عديدة<sup>(1)</sup>.

1. ينظر على سبيل المثال الى:

F.Cossutta, Le dialogue, introduction a un genre philosophique, Paris,Ed, PU du Septentrion, - 2005.

ومما لا شك فيه ان الحوار قد مثل الفعل الفلسفي الاول، لانه المجال الذي تتشكل فيه الافكار. وهوتواصل بين شخصين اومجموعة من اشخاص. يتكون من مرسل ومستقبل اوباعث ومتلقي ورسالة ولغة وهدف اوغاية الرسالة. ويمكن ان يكون سمعي اوبصري. ومن الناحية الاشتقاقية، فانه يحيل الى الكلمة اليونانية التي تعني(متابعة الفكرة). وبعد افلاطون من الناحية التاريخية، اول من استعمل طريقة الحوار في الكتابة الفلسفية، وان كان الحوار قد استعمله بعض شعراء اليونان قبله بقليل<sup>(2)</sup>.

واحتل الحوار لغة ومفهوما وممارسة مكانة هامة في الفكر الإسلامي يدل على ذلك منطوق الاية الكريمة (ادعو الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)<sup>(3)</sup>. وجسدت الفرق الكلامية جانبا مهما من هذا الحوار، ودون "التوحيدي" على سبيل المثال، جزءا هاما من هذا الحوار الثقافي الإسلامي في كتاب "الامتاع والموانسة". وفي الفلسفة المعاصرة فانه قد اتخذ مجموعة من الاشكال أهمها:

## 2. الحوار من المنظور الفلسفي اللاهوتي: مارتن بوبر:

يعتبر الفيلسوف واللاهوتي الالماني (مارتن بوبر 1878-1965) (Martin Buber) من المؤسسين لفلسفة الحوار، لانه جعل من الحوار قاعدة وأساسا لقيام فلسفة كاملة. حيث بين في كتابه الاساسي "انا وانت، Je et Tu" الصادر سنة 1923<sup>(4)</sup>، ان الحياة الإنسانية الحقيقية تقوم على اللقاء "la rencontre" مستبدلا عبارة الانجيل القائلة (في البدء كان الكلمة) بعبارة (في البدء كان اللقاء).

موضحا ومبيناً، أن الإنسان في جوهره هو (انسان الحوار homo dialgus)، وذلك في مقابل التصنيف الانتربولوجي للانسان العامل (homo faber) والانسان المفكر (homo sapien)، ذلك أن الفرد الانساني لا يستطيع تحقيق وجوده، من دون أن يتواصل مع غيره

2. F. Cossutta et M. Narcy, La forme dialogue chez platon. Evolution et réception, .2 Paris,Ed,Jerome Millon, 2000, p.25

3. سورة النحل، الاية، 125.

4. M.Buber, Je et Tu, Paris,Ed, Aubier / Montagne, 1981

من البشر ومع الله. من هنا فان الانسان الحوارى، فى نظر بوبر، انسان دينى. وان الكتاب المقدس عبارة عن حوار بين الخالق والمخلوق.

ولا يستطيع الإنسان الاتصال بالحياة الحقيقية، ما لم يدخل فى علاقة، فالإنسان يتميز بغيريته لا بانانيته، رغم ما تواجهه، هذه الغيرية من عقبات لعل اكبر تلك العقبات واوضحها غياب الحوار اوسيطرة الحوار الاحادى.

تتحقق العلاقة بين الانا والانت، من خلال اللقاء (la rencontre)، ومن شروط هذا اللقاء هوالتفتح على الغير والآخر، لانه بذلك يتحقق ما يسميه ب (الفضاء المشترك sphere interhumain)، ومن هنا يأخذ الحوار طابعه الوجودى اوالانطولوجى، لان الانسان يتحدد بوصفه كائنا حواريا.

وفى هذا السياق طور مارتن بوبر، مفهوما تربويا له الاثر الكبير على النظرية التربوية المعاصرة، ويمثل هذا المفهوم فى (العلاقة التربوية la relation pédagogique)، حيث يرى بوبر، أن لـ(أثينا) حق السبق فى هذه العملية، لانها جعلت من الحوار حالة عملية وحاضرة، وكشفت عن وجه جديد فى التربية لم يالفه الفكر البشرى.

لا تتأسس التربية والتعليم على القبول غير المشروط للتلميذ، بالمعرفة المقدمة من قبل المعلم، وانما العملية التربوية تشترط اوتتطلب فى نظره ضرورة تأكيد الذات، وأن مبدا تأكيد الذات من قبل التلميذ، لا تتنافى والميل نحوالموافقة والقبول، ولقد بين ذلك بتفصيل فى دراستين هامتين، هما: (اللقاء مصدر العلاج)، و(العلاقة روح التربية).

وعمداء العلاقة التربوية، هوالحوار من خلال شركاء يتمتعون بالحرية والسيادة والقدرة على الاختيار والمشاركة، ليس فقط على مستوى المعارف وانما على مستوى وضع المناهج التربوية ذاته، لذا فان الحوار الذى يشكل أساس العملية التربوية، يتطلب فى نظر بوبر أن يكون المربي مثالا للتلميذ، وأن يتحول التعليم من وظيفة الى رسالة<sup>(5)</sup>.

.Ibid., p. 87 .5

### 3 . الحوار في المنظور الفلسفي المنطقي: فرنس جاك:

كما يعتبر الفيلسوف الفرنسي المعاصر "فرنس جاك" Francis Jacques, 1934 من مؤسسي فلسفة الحوار، مستفيدا في ذلك من نتائج المنطق واللسانيات، وله نظرية اصطلاح عليها النظرية الحوارية "Dialogique"، عرضها في كتابه الهام الصادر سنة 1979 والموسوم بـ "النظرية الحوارية: بحوث منطقية في الحوار"<sup>(6)</sup>.

يجمع فرنس جاك بين التقليد الانجلوسكسوني في تحليل اللغة، وخاصة نظرية افعال الكلام التي اسسها "أوستين" ثم "سيرل". وكان اول من قال بها هو "فيتجنشتين" ضمن فلسفته الثانية التي عرضها في كتابه "بحوث فلسفية"، حيث دعا الى نظرية جديدة في اللغة، تعرف بنظرية الالعب والاستعمال، قوامها ان معنى القضية هو استعمالها.

وبين التقليد اللساني الفرنسي القائم على اللسانيات البنوية ولسانيات الخطاب كما طورها "مارتيني" و"بنفست"، وفلسفة لها حضور قوي في الساحة الفكرية والفلسفية الفرنسية، الا وهي الفلسفة الظاهرية، كما طورها "ميرلوبنتي" و"ليفناس"، وخاصة في المسألة المتعلقة بالغير والآخر، وهكذا فان فرنس جاك قد اسس نظرية في الحوار عمادها افعال الكلام ولسانيات البنوية والفلسفة الظاهرية، جاعلا من الحوار والمرجع والمرجع الذاتي والتداولية احد اركانها الأساسية. وتظهر معالم نظريته في الحوار، في جملة من المصطلحات والمفاهيم منها على سبيل المثال "العلاقة بين المتكلمين relation interlocuteur".

يقوم مفهوم العلاقة بين المتكلمين، على قاعدة اومبدا مؤداه ان (ما يميز الكائن هو العلاقة، l'être, ce qui est premier est la relation)، وانه بناء على هذه القاعدة التي تقتضي شروطا او عناصر اخرى هي "الدلالة المشتركة co-signification" او الفهم "comprehension"، و"الاحالة المشتركة co-reference"، او المعطى المشترك او التسمية المشتركة "denotation"، فان هذا العلاقة المشتركة، تسمح للافراد ليس فقط أن يعرفوا بعضهم بعضا، ولكن أن يعترفوا ببعضهم البعض، بمعنى أن يعترفوا ببعضهم كهويات شخصية. لان كل شخص، هو ذلك الكائن القادر على التواصل. أي قادر على استعمال الكفاءات التداولية في سياق ما.

6. Jacques, Dialogiques, Recherches Logiques sur le Dialogue, Paris, Ed, PUF, 1979.

ومن المعلوم أن مفهوم العلاقة مفهوم مركزي في اللسانيات البنيوية، بها تتحد البنية نظريا ومنهجيا<sup>(7)</sup>، كما وهو تأكيد لما سبق وان ذهب اليه مارتن بوبر.

والمفهوم المركزي الثاني في نظريته، هو مفهوم الحوار وهو مفهوم مشترك بينه وبين عالم الاجتماع "ادغار موران" صاحب مشروع العلوم البينية<sup>(8)</sup>. ومضمون المبدأ الحوارية "dialogique" هو وصف الوظائف المنطقية للمتكلمين، والكشف عن البنية الداخلية لكل خطاب يعمل سواء بين شخصين او اكثر. حيث يتحول الحوار بهذا المعنى الى نظام ونسق، يتعين وصف آلياته المنطقية.

والمفهوم الحوارية، مستويات عدة، تبدأ من العلاقة التبادلية بين شخصين لتصل الى مختلف الطبقات الاجتماعية التي تحكمها أشكالاً مختلفة من التعاقد التواصلي، او من العقد التواصلي، الذي يتداخل فيه السياسي، او بحسب لغة الفيلسوف، بحسب الاستراتيجيات الخاصة بالخطاب.

والمفهوم الثالث، هو مفهوم القبلي التواصلي "L'prioricomunicationel" الذي يتضمن نوعاً من المعقولة التواصلية او العقلانية التواصلية، لان كل تواصل يجب ان يقوم على نوع من الحجاج والبرهان والاستدلال، ولان طبيعة الحوار طبيعة تداولية تبليغية تقوم على خصائص التعاون والمشاركة والتبادل، العقلي.

والمفهوم الرابع هو مفهوم التواصلية "communicabilité"، والمقصود به أن فلسفة الحوار تقوم على نظرية معينة في الحوار والتواصل تتضمن نظرية الإعلام وتتجاوزها في الوقت نفسه.

وأخيراً، أو المفهوم الخامس، هو مفهوم الاستفهام "interogativite"، ذلك ان الوحدة الاساسية او العنصر الاساسي او المنطوق الاولي او القضية الذرية للحوار، تظهر في شكل (السؤال والجواب) الذي اصبح فعلاً لغوياً، كما أن كل قضية مهما كانت، هي بطريقة ظاهرة او مستترة مباشرة او غير مباشرة، صريحة B وضمنية، هي اجابة على سؤال،

7. الزواوي بغوره، المنهج البنيوي بحث في الاصول والمبادئ و التطبيقات، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2001. ص. 123.

8. Edgar Morin, Introduction à la pensée complexe, Paris, Ed, ESF, 1990.

تاخذ شكلا حواريا غير معلن. ولقد بين ذلك في دراسته التي خصها للنقاش الذي دار بين "أ. اينشتين، 1879 - 1955" صاحب النظرية النسبية و "ن. بوهلر، 1885 - 1962" مكتشف نظرية الكوانتا، او فيزياء الكم<sup>(9)</sup>.

#### 4. الحوار في المنظور التأويلي: هانز غدمار:

كما يعد الفيلسوف الالماني "هانز جورج غدمار 1900 - 2002" مؤسس "التأويلية الفلسفية"، من بين الفلاسفة الذين جعلوا من الحوار موضوعا مركزيا في فلسفتهم، يظهر ذلك في كتابه "العمدة الحقيقة والمنهج" 1960، و"الفلسفة التأويلية" 1996<sup>(10)</sup>، ومن خلال موقفه من اللغة التي اعتبرها الكائن الوجود الوحيد الذي يمكن فهمه. وتأسيسه لفلسفة تأويلية<sup>(11)</sup>، على الرغم من ان التأويل موضوع قديم، ولكنه، اصبح منذ السبعينات من القرن العشرين، فلسفة عالمية، وتكتف حضوره الفلسفي بشكل واضح، في معظم النقاشات الفكرية والعلمية.

ففي بحثه عن الأصول التاريخية للتأويلية، يرى غدمار ان التأويلية هي (فن الشرح والتأويل)<sup>(12)</sup>. وأن الكلمة الألمانية المستعملة إلى غاية القرن الثامن عشر، هي كلمة التقنية والفرن الذي يجمع بين النحو والخطابة والمجدل. كما أنها تفيد معنى قديما وتحيل إلى ممارسة قديمة في الفلسفة الارسطية تسمى بالفلسفة العملية أو التطبيقية.

ولفهم التأويلية، وجب مساءلة جملة من المفاهيم الفلسفية المتداولة في القرن الثامن عشر، ومنها أن مفهوم الفلسفة كان يعني العلم، الذي لا يقتصر على العلم النظري أو الطبيعي، وإنما على كل معرفة بالحقيقة. وعليه فإن الفلسفة التأويلية ليست فلسفة نظرية فقط وإنما هي فلسفة عملية أيضا. يدل على هذا الجانب العملي في الفلسفة التأويلية الكلاسيكية، مختلف الكتب التي خصتها لتأويل النصوص، لاغراض عملية وهي تقريب

9. F.Jacques, L'espace logique, Paris, PUF, 1985.

10. Gadamer, La philosophie herméneutique, Traduction Jean Grondin, Paris, Ed, P.U.F, 1996.

11. ينظر على سبيل المثال:

Gadamer, Langage et vérité, Traduction Jean-Claude Gens, Paris, Ed, Gallimard, 1995.

12. Gadamer, Langage et verte, Traduction Jean-Claude Gens, Paris, Ed, Gallimard, 1995.

p.232

تلك النصوص إلى قرائها. وأنه من خلال تلك النصوص العملية، تم التوقف عند مسائل نظرية معقدة تحتاج إلى فهم نظري اعم، وهذه المسائل هي التي شكلت حقل التأويلية المعاصرة<sup>(13)</sup>.

وفي هذا السياق، يحيل، على سبيل المثال، إلى القديس "اغسطين" وإلى نصوص القانون والتشريع وفقه اللغة وخاصة موضوع العودة الى اللغة اللاتينية واليونانية، حيث طرحت هذه العودة مسائل عملية ونظرية. ولعبت مسألة ما يعرف في تاريخ الثقافة الغربية، باسم "نزاع القدماء والمحدثين" في الأدب دورا هاما في تاسيس التأويلية الفلسفية، لأنها طرحت مشكلات التأويل المتعلقة بفكر الحركة الإنسانية لعصر النهضة الأوربية.

وتعمقت مسائل التأويلية الفلسفية، بظهور الحركة الرومانسية والتطورات التي عرفتها لاحقا وخاصة ما أحدثه "نيتشه" من نقد لم ندرك بعد، جميع جوانبه كما قال<sup>(14)</sup>. هذا النقد الذي يظهر عند "هيدغر" وخاصة في كتابه "ما الميتافيزيقا"، حيث بين أن أشكال الميتافيزيقا الغربية المختلفة، قد تركت الوجود جانبا، وهو ما أشارت إليه عبارته المشهورة "نسيان الوجود"<sup>(15)</sup>.

يرى غدمار أن نص ما الميتافيزيقا، قدم مفهوما جديدا للتأويل يقوم على الكينونة والفهم وفهم الذات، وبين أن كل تأويل عبارة عن مسار، لانه ينظر الى كل منطوق او عبارة، على انه عبارة عن حوار يقوم على السؤال والجواب، وأن المسار الوحيد لفهم المنطوق لا يكون الا بالعودة إلى السؤال، الذي من خلاله يعرف المنطوق بوصفه جوابا<sup>(16)</sup>.

ان هذه الخلفية التاريخية والفلسفية، هي التي سمحت لغدمار بتأسيس ما أطلق عليه اسم، التأويلية الفلسفية. فما هي هذه التأويلية الفلسفية وما مفهومها للغة، وما هو موقفها من الحوار؟

.Ibid., p.237 .13

.Ibid., p.242 .14

.15 خص غدمار، هيدغر بكتاب هام، ينظر:

.Les Chemins de Heidegger, Traduit par Jean Grondin, Paris,Ed, Vrin

.Gadamer, Langage et vérité, op-cit, p. 248 .16



لا شك انه ليس بمقدورنا الاجابة على هذه الاسئلة لاسباب عديدة، اهمها: أن الاجابة تتطلب العودة الى تراث هذا الفيلسوف المتنوع والمعقد، كما انه لا يشكل هدفنا في هذا البحث، لان غايتنا هوتعيين مفهوم اللغة وعلاقته بالحوار. لذا فإننا سنكتفي بالإشارة الى اهم الملامح المشكلة لهذه الفلسفة ولمفهومها للغة والحوار.

يرى غدمار، انه منذ ظهور الظواهرية، لم يعد المفهوم وبالتالي الكلمة، وسيلة او اداة وانما هو موضوع الفلسفة<sup>(17)</sup>. وأن العلاقة الجديدة بين اللغة والتفكير، تفرض على التأويلية أن تصبح فلسفية. وأن هذه التأويلية الفلسفية قد عرض خطوطها العامة في كتابه الحقيقة والمنهج<sup>(18)</sup>.

ولقد لخص الفيلسوف "باسكال انجل" في دراسة هامة بعنوان "التأويلية، اللغة والحقيقة" معالم هذه التأويلية الفلسفية مؤكدا على انها:

- 1 . تقوم الدلالة على التأويل، وكل ظاهرة هي نتاج التأويل، ولا وجود لها الا بالنسبة للممارسة التأويلية.
- 2 . الواقع، وطبيعة الكائن، يظهران من خلال التأويل.
- 3 . التأويل، ليس منهجا، ولكنه ممارسة.
- 4 . يقوم التأويل على الفهم.
- 5 . الفهم هونوع من الاتفاق.

يرى غدمار أن عالمية التأويل، تظهر في شكلين أساسيين: التفاهم والحوار. التفاهم والحوار بين الأنا والآخر، بين النحن والتراث، والنموذج الاساسي للحوار هو السؤال والحوار.

وان اللغة ذاتها، لا تظهر أسرارها الا من خلال الحوار، او كما قال (اللغة تكتمل معقوليتها وتنكشف قوتها وطاقتها وتتجلى حكمتها في بلاغة الحوار)<sup>(19)</sup>. وعليه، فان اللغة

17. Gadamer, La philosophie herméneutique, op-cit, p. 37.

18. Ibid., p. 42-43.

19. هانس جيورغ غادامير، فلسفة التأويل، ترجمة محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، (د - ت)، ص. 21.

عبارة عن حوار وتواصل، وليس مجرد هندسة خطابية او قوالب لفظية، فلا يتم (إنجاز اللغة في قضايا نحوية او منطقية وإنما في الحوار)<sup>(20)</sup>. وهدف الحوار تحقيق الاتفاق، وهو ما يظهر في الحوار الافلاطوني. وتعد فكرة الاتفاق من خلال الحوار، فكرة مشتركة بين غدامير وهبرماس.

وأحد الشروط الأساسية للحوار الذي يحقق التوافق والاتفاق، هو المساواة، حيث يقول (النموذج الرئيسي لكل تفاهم هو الحوار والمحادثة، نعرف بان الحوار مستحيل، إذا استحوذ أحد شركاء هذا الحوار وبشكل مطلق على المكانة او الوضعية الراقية مقارنة بالآخرين، عندما يزعم مثلاً امتلاك معرفة مسبقة حول الأحكام القبلية التي يصبح فيها الآخر أسيراً)<sup>(21)</sup>.

وفي الوقت الذي تعمل فيه اللامساواة على الانغلاق، فان الحوار يشترط التفتح على الآخر، مما يتطلب الكف عن لعب دور المحلل النفساني، الذي لا يأخذ (تأكيدات الغير بجدية، ويدعي الكشف عنها بطريقة التحليل النفسي)<sup>(22)</sup>. من هنا أشاد غدمار بدراسات عالم النفس الفرنسي "جاك لكان" والفيلسوف الفرنسي "بول ريكور".

ذلك أن غدمار يعتقد، أن الحوار وسيلة للعلاج والتشخيص والتحليل والدراسة، هذا ما تبينه اعمال ودراسات "جاك لكان" و "بول ريكور" وخاصة في كتابه "نزاع التاويلات". وكما قال (المعالجة بالحوار هي أيضا ظاهرة تاويلية حيث ناقش مبادئها النظرية كل من جاك لكان وبول ريكور)<sup>(23)</sup>. واخيرا فان الحوار يعكس، في نظر غدامير، فلسفة عملية. وهو الوجه الأساسي للفلسفة التاويلية.

على أن الفيلسوف بول ريكور يرى أن غدمار، قد عمد الى التوسع (ليس في الاستنتاجات المناوئة للسيكولوجية فقط، بل وايضا في الاستنتاجات المناوئة للمنهجية في

20. المرجع نفسه، ص. 23.

21. المرجع نفسه، ص. 88.

22. المرجع نفسه، ص. 88.

23. المرجع نفسه، ص. 85.

الفلسفة الهيدغرية<sup>(24)</sup>. وأنه طرح خيارا بين المنهج والحقيقة، واختار الحقيقة، واعتبر اللغة كوسيط كوني تنتشر فيه كل تجربة للحس، وأن هذا التوجه (المعادي لبداية للسيكولوجية ثم المعادي للمنهجية، الذي سلكته التأويلية (والاصح التأويلية الفلسفية) يفتح أزمة داخل الحركة التأويلية)<sup>(25)</sup>. وهو ما حاول تجاوزه، بول ريكور، باسم المنهجية التأويلية<sup>(26)</sup>.

### ثانيا. من الحوار الى التواصل:

يرتبط الحوار من حيث التعريف بالتواصل او الاتصال، ارتباطا عضويا، لذا وجب تعريف التواصل، خاصة وان هنالك من ينظر للتواصل بوصفه فرعا معرفيا بينا يجمع بين الفلسفة وتحليل الخطاب.

#### 1. في التعريف :

لا يقتصر التواصل على الفلاسفة بل يشمل علماء الإعلام وعلم النفس واللغة. والتواصل عملية تتم بواسطة تبليغ معلومة (أ) إلى متلقي (ب) بواسطة قناة اتصال (ج). وعلى الرغم من بساطة هذه العملية، فانها تحمل رهانات ومفارقات. ذلك ان الرسائل المبلغة، لا تتمتع دائما بالوضوح والدقة والمعنى المتفق عليه. بل نستطيع القول ان جميع الرسائل تميل نحو التعدد والتنوع والاختلاف، لان المتلقي مهما كان مستواه، ليس أبدا مسجلا سلبيا لمعطى الرسائل، بل يحاول دائما الفهم وأصباح الرسالة بدلالة معينة. كما تلعب قناة الاتصال دائما دورا مؤثرا في مضمون الرسالة وذلك وفقا وطبقا للوسائل المستعملة، سواء كانت وسائل سمعية او بصرية.

ولقد بينت نظريات الإعلام، ان التواصل لا يهدف أبدا إلى الإخبار فقط، وإنما إلى التأثير والإيهام والإغراء. من هنا فان العملية التواصلية تتصف شئنا ام أيننا بخاصية التعقيد التي تستلزم السؤال والاستفهام والتحليل والدراسة والبحث.

24. ريكور، فلسفة اللغة، مرجع سابق، ص. 30.

25. المرجع نفسه، ص. 30.

26. الزواوي بغوره، الفلسفة واللغة، نقد "المنعطف" اللغوي في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة، بيروت- لبنان، 2005، ص. 203.

وان دراسة أولية للتواصل، تبين بجلاء علاقته باللغة وبمجال فلسفة اللغة، ذلك ان التواصل هو عملية نقل معلومة او خطاب من باعث إلى مستقبل أو من مرسل إلى متلقي، وهذا يتفق وتعريف ”جورج مونين“ للغة بحسب وظيفتها التواصلية، حيث قال (التواصل هو الوظيفة الأولى والأصلية والأساسية للغة، في حين ان بقية الوظائف الأخرى مجرد ملامح لها غير ضرورية)<sup>(27)</sup>.

كما أكد على هذه الفكرة ”اندري مارتيني“ بقوله (يجب اعتبار التواصل بمثابة الوظيفة المركزية لهذه الاداة او الوسيلة التي هي اللغة)<sup>(28)</sup>. وكذلك اكد على هذا المنحى، ”جاكسون“ بقوله (الملكية الخاصة في مجال اللغة لا وجود لها، فكل شيء اجتماعي)<sup>(29)</sup>.

ولقد عرف التواصل ”هيرماس“ بقوله (اسمي التواصل مجمل الترابطات التي يتفق حولها المشاركون من اجل تحقيق مخطط أعمالهم بطريقة ذكية او فعالة. والاتفاق المحاصل يتحدد بمقدار المعرفة الخاصة بين الذوات وشروط الصحة او متطلبات الصدق)<sup>(30)</sup>. ويظهر التواصل، في شكل الفعل الذي يخرج الوعي من باطنيته نحو الانفتاح على الآخر.

## 2 . التواصل من منظور فلسفي: هيرماس

ومما لاشك فيه ان، مساهمة الفيلسوف الالمانى ”هيرماس، 1929“ في مجال التواصل، مساهمة مميزة على اكثر من مستوى، لانها اولا، تأسست على نتائج نظرية افعال الكلام والالسنية والتاويلية الفلسفية، وثانيا لانها تشكل نظرية عامة، تميزت بقدرة كبيرة على التفسير الاجتماعي والسياسي والقانوني، أي على قدرة تطبيقية كبيرة في ميادين معرفية مختلفة، مما اعطاها صبغة كلية وعالمية، وثالثا لانها موضوع مناقشة، لا نبالغ ان قلنا، انها مناقشة عالمية، اذ ان اعمال هذا الفيلسوف تلقى اقبالا واسعا في العالم وخاصة في اوربا وامريكا.

.G.Mounin, Cles pour la linguistique, Paris,Ed, Seghrs, 1971,p.86 .27

.A.Martinet, Eléments de linguistiques générale, Paris, Ed, Armond Colin, 2003, p. 72 .28

.R.Jackobson, Essais de linguistique générale, Paris, Ed, Minuit, p. 133 .29

Jugen Habermas, Morale et Communication, tra, Christian Bouchindhomme, Paris, Ed, .30

.Flammarion, 1986, p.79

لقد كان المجال العام ( Espace publique ) - موضوع أطروحته التي قدمها سنة 1962 - الذي يشكل الراي العام، هونقطة البداية في بحثه التواصلي، وكان المجال العام، فضاء للتعبير عن الراي العقلي والنقدي، الى أن جاء الاعلام المعاصر، فاحتله وشوّهه، اوتعبير الفيلسوف، احتل مضمونه وجعله دعامة للأيديولوجية والمصلحة.

ومع تحول العلم والأيديولوجية، إلى أدوات هيمنة، أصبح من الضروري مساءلة المجال العام المحتل من قبل الاعلام، وتفكير التواصل من جديد. من هنا ضرورة وامكانية تاسيس نظرية في التواصل، وهي نظرية اجتماعية وثقافية تسمح بقيام تفكير عقلي ونقدي جديد مستقل وملائم او مناسب لعصرنا، وهو ما عبر عنه بالفعل التواصلي الذي كان عنوان كتابه الذي ظهر سنة 1981.

وتعد نظريته المعروفة باسم الفعل التواصلي، بمثابة منطلق جديد للعلوم الاجتماعية، منطلق يستند على منجزات اللغة وفلسفة اللغة، اوبعبارات دقيقة على المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة ونموذجه اللغوي، ذلك ان هيرماس يرى ان اللغة سواء من حيث هي موضوع علم خاص او من حيث هي موضوع تفكير فلسفي عام، تمكننا من إحداث قطيعة مع الاطروحات التقليدية في العلوم الاجتماعية المتعلقة بالوعي والفعل والممارسة.

وفي تقديره، ان العلوم الاجتماعية، وبشكل خاص علم الاجتماع، سيبقى رهن الاطروحات التقليدية حول الجماعة والفرد والروابط الاجتماعية القائمة على الوعي، ما لم يتم تجديدها بدراسة العلاقات البيئية، المبنية على اللغة الطبيعية، او انطلاقا من فعل التواصل بين الأفراد والجماعات، وبالتالي من الضروري تحويل علم الاجتماع الى فرع من فروع علوم الاتصال الذي يجب أن يقوم على الفعل التواصلي.

لا ينكر هيرماس العوامل الاجتماعية الأخرى، التي تدخل او تساهم او تؤثر في النشاط الاجتماعي والإنساني، كالأفعال الادائية التي تحدثها التقنية على سبيل المثال، إلا انه يرى ان الفعل التواصلي يتميز بطابعه المحدد للعلاقات التواصلية التي لا يمكن باي حال من الأحوال ردها او اختزالها الى مجرد تبادل المعلومات او الأخبار او المعطيات بواسطة اللغة.

لا يقوم الفعل التواصلي على تبادل المعلومات، ضمن سياق اوظروف اجتماعية معينة فقط، وإنما يقوم بفعل التأويل لما يحدث، ويستطيع بلورة القواعد والآليات التي تسمح

بالعيش الجماعي او قيام الحياة الاجتماعية، وبالتالي فان الفعل التواصلي، يساهم في بناء العالم الاجتماعي المعاش<sup>(31)</sup>.

وبالطبع فانه، لا يمكن اكتشاف ومعرفة العالم، من دون عبارات حول العالم، عبارات يتم تبادلها من خلال الفعل التواصلي، كما أنه لا وجود لأنشطة استراتيجية من غير افعال لغوية. ففي كل حقل او مجال اجتماعي هنالك إشكاليات وقضايا يتم الصراع حولها، هذه القضايا لا يمكن فصلها عن أشكال التعبير التي تتخذها.

وعليه فان دراسة شروط نجاح اوفشل التواصل الاجتماعي، يصبح ضرورة علمية لكل تفكير اجتماعي. وما لا شك فيه ان للتواصل الاجتماعي، أشكالا تعبيرية مختلفة ومتعددة، تميز العلاقات الاجتماعية، الا أن هذا الاختلاف والتباين والتنوع يفرض في الواقع حدا أدنى من القواعد المشتركة.

من هنا يرى ضرورة إقامة او تأسيس ما سماه بتداولية عامة او شاملة او كونية، تحدد شروط صلاحية التبادل والتواصل. وبالطبع فان الأمر لا يتعلق بتحديد الجوانب الخاصة في لغة التواصل - كالجانب التركيبي والدلالي - وإنما المطلوب هو الاهتمام باللغة بوصفها فعلا لغويا تبادليا لجملة من العلاقات والوضعيات الاجتماعية، بمعنى الاهتمام بالجوانب التعبيرية التواصلية للغة، بحيث يفهم المتلقي او المستقبل خطاب الباعث او المرسل، وان يفترض في خطابه إرادة او نية طيبة او خيرة، وان يقتنع بحقيقة القضايا او الجمل او العبارات المقترحة عليه، وان يتمكن من ادراك العلاقة بين الأفعال الكلامية المقترحة والمعايير المعتمدة بانها صحيحة، وذلك بغرض تأسيس علاقة تواصلية إيجابية، وبالطبع يجب، ان يتمكن المستقبل او المتلقي، من القدرة على الاختيار بين مختلف نماذج الصلاحية المقترحة.

31. لمزيد من التفصيل ينظر على سبيل المثال:

- عمر مهليل، من النسق الى الذات، قراءات في الفكر الغربي المعاصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2001، ص 135-105. كما خص غدمار بفصل كامل، ينظر صص. 137 - 158.  
روديجر بونير، الفلسفة الالمانية الحديثة، ترجمة فؤاد كامل، دار الثقافة للنشر و التوزيع، صص. 252-293.

ولتحقيق ذلك، يفترض هيرماس وجود لغة مثالية ليس بوصفها قيمة ناظمة ولكن باعتبارها عنصرا حقيقيا او افتراضيا حاضرا في كل مناقشة، وهذا ما سماه "أوستين" بالاتفاق الأولى<sup>(32)</sup>.

يفترض الفعل التواصلي دائما، إمكانية الحجاج والمناقشة النقدية والمحق في الرفض والموافقة، ولانه من دون هذه القاعدة، لا يمكن للفعل التواصلي ان يقوم اوتأسس أصلا، لذا فان وجود تداولية عامة للغة، تشكل نوعا من المنطق الذي يضمن الشروط المعيارية وإمكانيات نجاح الفعل التواصلي.

ذلك ان الفعل التواصلي يواجه عقبات او بالأحرى تحديات ليس اقلها العنف بجميع أشكاله، وأنواع الخداع والتمويه والكذب المختلفة، لذا من الضروري قيام نظام معياري ومؤسسي يفرض حدود التوافق بغرض تحقيق تواصل وحرية التأويل في مختلف الوضعيات. ولقد توسع هيرماس في نظرية الفعل التواصلي، واقترح نظرية في "أخلاق المحادثة"<sup>(33)</sup>.

وإجمالا، فان الفعل التواصلي ومنه فعل المحادثة، يتميز بكونه مفهوما وصفيا، بما انه يعتمد على اللغة العادية، ويكونه ثانيا مبدءا معياريا، لانه يعتبر نموذجا للمجتمعات الديمقراطية، ومن البين والجلي، ان الفعل التواصلي كما صاغه هيرماس يعتمد على منجزات نظرية الافعال الكلامية كما أرسى قواعدها اوستين وسيرل، بما انه يرى في الفعل اللغوي فعلا تاسيسيا للعلاقات الاجتماعية، وبما انه ركز في نظريته التواصلية على الجانب التدوالي بين أفراد الجماعة الخاصة اوالعامة، واكد على الطابع الوظيفي والاتفاقي لقواعد اللغة التي تسمح بتحقيق الفعل التواصلي، وذلك بناء على نظريته في التداولية الكلية اوالعامة أو الشاملة أو الكونية.

32. لمزيد من التفصيل، ينظر دراسة الدكتور محمود سيد احمد:  
البرجماتيقا عند هابرماس، دار الحضارة للطباعة والنشر، طنطا، 1994. صص. 40-26.  
33. الزواوي بغوره، الفلسفة واللغة، مرجع سبق ذكره، ص. 209.

## 3. في أخلاق المحادثة :

بين الحوار والتواصل مفردات لا يجب ان ننساها، ومن هذه المفردات على وجه الخصوص، مفردات التعبير والنقاش والمخاطبة والمحادثة " conversation/Discussion". وما لا شك فيه، ان المحادثة فن قديم، وموضوع دراسات عديدة، لانها كانت نقطة التقاء بين أنشطة انسانية عديدة مثل فنون العيش والسياسة والاجتماع والادب والفلسفة، وذلك بحثا عن الحقيقة والسعادة.

ففي المحادثة تتحول اللغة الى لعبة، ويتحول المتحدثون الى لاعبين، يتداخل فيه الفن بالحيلة والذكاء بالمكر والرغبة بالحلم، وتهدف الى اقامة علاقات شفافة او خالصة من خلال ما تحدثه من تقارب وتفاهم، لذا فان كل محادثة تعد امرا اثيرا ولقد عبرت الفنون على هذا المنحى افضل تعبير، وخاصة فن الرواية<sup>(34)</sup>.

ويعتبر هيرماس و"كارل اتوابل 1922" K.O.Apel من أوائل الفلاسفة الذين نظروا لهذا الشكل من التواصل، بل وتعد نظريتهما في المحادثة علامة على تجدد الفلسفة السياسية والأخلاقية. ونصوصهما في هذا الموضوع تعد نصوصا فاصلة في تاريخ الفلسفة المعاصرة، لانها كانت ثمرة لقاء علمي وفلسفي بين فيلسوفين كبيرين.

تهدف أخلاق المحادثة "Ethique de la discussion"، الى إحياء المشروع الكانطي في الاخلاق والسياسة، وذلك بإقامة أسس ومعايير للفعل الاخلاقي والسياسي، بالاستناد على اللغة والتداولية وفعال الكلام، هذا ما تؤكد القواعد التي خلص اليها كلا من الفيلسوفين كما سنبين ذلك لاحقا.

ومنطلق أخلاق المحادثة، هوان الإنسان ما ان يشرع في الحديث اوفي الحوار اوفي فعل التواصل، حتى يكون قد قبل اووافق ولوتكتيكيا اومؤقتا، بضرورة الاحتكام الى معيار اخلاقي، وهذا المعيار هو اخضاع مجمل الاختلافات للحجج والأدلة التي تحقق الإجماع "Consensus".

.34 Emmanuel Godo, Histoire de la Conversation, Paris, PUF, 2003.



لا شك ان هذا المعيار الاولي، يرفض النموذج الذاتي في اللغة، ويعتمد على المقاربة البين ذاتية التي تسمح بإقامة معايير للممارسة، واحد هذه المعايير الاساسية هو ما يسميه ابل وهيرماس بمعيار التصرف الصحيح او الفعل العادل او المسلك الحق، "l'agir juste".

ولقد لخص هيرماس قواعد المحادثة اخلاقيا وسياسيا في قاعدتين اساسيتين هما قاعدة "U" او "Universalité" او القاعدة "الكونية، العالمية او الكلية الشاملة" وقاعدة "D" او "Démocratie"، او الديمقراطية.

ومضمون القاعدتين او منطوقهما هو (أي قاعدة او معيار لا يملك الصلاحية، الا اذا كان المعينون به متفقون فيما بينهم، او يمكن لهم الاتفاق عليه، بوصفهم شركاء في المحادثة العملية بشأن تلك القاعدة او المعيار)<sup>(35)</sup>. وتسمى هذه القاعدة، بالقاعدة الديمقراطية ويرمز لها برمز "D".

ومنطوق القاعدة الكونية هوان (كل قاعدة، لكي تكون صالحة، يجب ان تستوفي الشروط سواء من حيث نتائجها او من حيث اثارها الجانبية، وان تلقى القبول من كل الاشخاص الذين لهم علاقة بها) وهو ما يسميه بالقاعدة الكلية او الكونية او العالمية، ويرمز لها بالرمز "U"<sup>36</sup>. ولقد بين هيرماس كيفية تطبيق هاتين القاعدتين في الميدانين السياسي والقانوني في كتابيه "الاخلاق والتواصل، 1986" و"في اخلاق المحادثة، 1999".

ومن معالم اخلاق المحادثة بالاضافة الى القاعدتين، انها اخلاق عقلانية تواصلية تقوم على الاعتراف، الصادر عن اجماع. ومن المعلوم ان القاعدتين، تعيدان بطريقة غير مباشرة الشروط التأسيسية لـاخلاق الواجب كما صاغها كانط.

Habermas, *Morale et communication*, tra, Christian Bouchindhomme, Paris, Ed, .35  
Flammarion, 1986, p.78

.De l'ethique de la discussion, Paris, Ed, Cerf, 1992 -

.Ibid., p. 80 .36

ولزيد من التفصيل، ينظر:

Michel Totshing, *Elément pour une théorie pragmatique de la communication*,  
Montréal, Université de Québec, 2000

France Aubin, *La théorie de la discussion et le droit international des droits de la personne : le-cas des Nations Unies*. Montréal, Université de Québec, 1999

ولقد تحولت اخلاق المحادثة، الى موضوع نقاش عميق وثري بين هيرماس و كارل اتوبل، كشفت عن نقاط توافق واختلاف بين الفيلسوفين، وكان من مظاهر هذا الاتفاق ضرورة العودة الى كانط، والانطلاق من المشروع الكانطي لتأسيس الفعل الاخلاقي، وقناعتها بالدور الذي تقوم به اللغة، وخاصة في مستواها التداولي، والاستفادة من نتائج نظرية افعال الكلام.

كما يظهر اتفاقهما الأساسي في القول بالمبدأين الذي سبق لهيرماس أن عبر عنهما وهوأن شرط التواصل، واقامة الاخلاق، هوالمبدأ الكلي والمبدأ الديمقراطي، وكذلك في النقاط الاتية:

1. انه ومن اجل اقامة العدل العالمي والحوار بين الثقافات، ثمة حاجة لعقلانية عالمية إجرائية (opérationnelle) وليس عقلانية جوهرية.
2. من اجل اقامة مجتمع دولي متحضر، يجب إعطاء الاولوية للقانون وليس للقوة، وأن استخدام القوة يجب أن يشرع بالتوافق مع مبادئ العدل الدولية.
3. العقل والقابلية للفهم قاسم المشترك بين بني البشر
4. الموافقة تقوم على قوة الحجة المثلى اوفضلى.

الا ان هنالك مظاهر اختلاف بين الفيلسوفين، برزت بشكل خاص في محاولة "ابل" تأسيس ما سماه بالتداولية المتعالية، وفي موضوع المسؤولية، وفي علاقة التواصل والمحادثة. فاذا كان هيرماس يميز بينهما، فان ابل يعمد الى الجمع بينهما. واذا كان كل حديث او محادثة، في نظر هيرماس، يحمل بعدا تواصليا، ويشترط الاتفاق المسبق والتعاون، فان التواصل هو توافق في حالة الفعل، ولم يعد في حاجة الى توافق مسبق، مادام قد اصبح امرا واقعا.

اما كارل اتوبل، فلا يهتم بهذه التفرقة او لنقل بهذه الفروقات، لانه يرى ان مهمة الفلسفة تكمن في تدليل هذه العقبات والصعوبات او بتعبيره الخاص، تجاوز الاكراهات التداولية. وبالتالي يرى ان كل تواصل هو محادثة، باعتبار ان مهمة الفيلسوف تكمن في اظهار المقاصد وتجاوز التناقضات.

وثمة مسألة خلافية هامة بينهما، وتتصل بالزاوية المعرفية للتواصل والمحادثة، حيث يرى هيرماس أن الواقع المعيش هو الذي يؤكد على الفعل التواصلي، في حين يرى ابل ان التداولية الشاملة هي مقارنة فلسفية بوجه اساسي.

وإذا كانت اخلاق المحادثة قد شكلت منطلقا واحدا للفيلسوفين، فان مجال التطبيق قد اختلفا فيه، حيث اختار هيرماس مجال القانون، في حين ركز ابل على الاخلاق واخلاق المسؤولية، على وجه التحديد.

وبعيدا عن اوجه الخلاف والاتفاق بين الفيلسوفين، الذي اصبح ينظر اليه، على انه خلاف مثمر، سواء اكان خلافا تكامليا اوتفارقيا في اطار النظرية التواصلية، فان ما طرحه الفيلسوف الكندي (جون غرونديان) حول علاقة هذه الاخلاق بالحياة العملية او كما قال هل علينا ان ننتظر الحكم الاخير لنبلغ الحقيقة؟ او كيف نتصرف ونسلك في العالم المعيش عندما نؤسس اخلاق الحوار؟ او كيف تساهم اخلاق المحادثة في الانعتاق؟ جدير بالبحث والفهم. ذلك ان هذا السؤال يطرح، ضرورة ايجاد طريقة لتطبيق اخلاق المحادثة، واقامة العلاقة بين الاخلاق والافعال.

وفي تقدير هيرماس فان مبدأ الكلية اوالعالمية ومبدأ الديمقراطية في صورتها التشاورية القائمة على المواطنة الدستورية، تمكنا من تطبيق اخلاق المحادثة، اما كارل اتوبل فاضاف مبدءا ثالثا، وه ان اخلاق المحادثة تقتضي مبدءا اجرائيا تقيمه التداولية الشاملة الا وهو مبدأ المسؤولية، وذلك على غرار الذرائعيين الذين ياخذون بعين الاعتبار النتائج والاثار الجانبية المترتبة على النتائج.

ولقد بين ابل مختلف هذه الجوانب، في العديد من دراساته وخاصة في "التفكير مع هيرماس ضد هيرماس"، و"المحادثة والمسؤولية، الاخلاق بعد كانط". و"مساهمة في اخلاق المسؤولية"<sup>(37)</sup>.

.K.O.Appel, Ethique de la discussion, Paris,Ed, Cerf, 1994 .37

ويمكن العودة أيضا إلى:

.Penser avec Habermas contre Habermas, Paris,Ed, L'éclat, 1990

.Discussion et responsabilité, L'éthique après Kant, Paris, Ed, Cerf, 1996

يعتقد ابل، ان الاخلاق تواجه مشكلة منذ "كانط" الى "راولس"، وهذه المشكلة تتمثل في العلاقة الشرعية بين الذات الاخلاقية والجماعة التي تنتمي اليها، وان هذه الرابطة التي تجمع الفرد بجماعته، يجب ان تتأسس على المحادثة المبنية على المحجة "Discussion argumentes" وذلك بغية تاسيس قيم مشتركة.

من هنا يصرح ابل بان اخلاق المحادثة تختلف عن الاخلاق الخاصة بالمحادثة المحجاجة، انها اخلاق مسؤولية متضامنة مع كل من يستطيع المحاججة حول مختلف مشكلات العالم المحسوس، لان المسؤولية تعني التزاما نحو الاخر ونحو المستقبل.

اما هيرماس، فيرى ان هذه الاخلاق، يجب ان تتحول اوتصير الى قوانين وان تتأسس، فلا يكفي الالتزام الاخلاقي، بل يجب ان يكون هذا الالتزام متبوعا بالالتزام قانوني.

من هنا طور ابل اخلاق المسؤولية، في حين عمق هيرماس مسالة التشريع الذي يحفظ ويضمن المكاسب، مؤكدا على ان شرعية المعايير الاخلاقية، تتبع من هذه التشريعات.

### ثالثا . من النظرية إلى الممارسة:

اذا كانت المعالم الكبرى السابقة تبين الطابع النظري لمساهمة الفلسفة المعاصرة في قضايا الحوار والتواصل والمحادثة، فان ما تجب الاشارة اليه هو المحاولات العملية لتطبيق تلك الافكار.

#### 1. في التعليم:

ومن اهم الميادين ، التي عرفت تطبيقا لافكار الحوار والتواصل والمحادثة، ميدان التربية والتعليم، حيث ظهرت اعمال تربوية مطبوعة بمفاهيم هذه النظريات الحوارية والتواصلية، ولعله من المفيد ان نشير هنا الى بعض المفاهيم المستعملة، ومنها على وجه الخصوص مفهوم "جماعة البحث"، "المحادثة"، "اخلاق المحادثة" "الالتزام"، حيث تشير جماعة البحث الى تعدد وتنوع المشاركين في البحث، كما تقوم على نوع من المنافسة المعرفية بين الافراد، تبدأ من اسئلة وجودية او معرفية اوقيمية. وتهدف الى تكوين فكري للتلميذ والطالب عبر اللغة الحوارية او اللغة الشفوية.

كما تفيد المحادثة وإخلاقها، نقل التلميذ من الحالة الشعورية والعاطفية والراي العام الى حالة بناء كفاءة فكرية تظهر في التساؤل وطرح القضايا في شكل اسئلة "problimatisation"، وصياغة القضية في مفهوم "conceptualisation"، والعملية الثالثة صياغة الحجج والبراهين والادلة او "argumentation"، أي تقديم افضل الحجج، بغرض تجاوز تعارض او تقابل او تضاد او تناقض الآراء او المواقف المختلفة حول القضية المراد مناقشتها، بغرض الوصول الى اجماع.

ولا يتحقق هذا الاجماع والاتفاق، الا عبر حوار وتواصل، لذا وجب إدخال قيم او اخلاق ضرورية للحوار منها: ترسيخ او تثبيت قيم الاستماع، احترام الآخر، الفضول في معرفة الغير، توفير مناخ او جو او فضاء مناسب يمكن المتحدثين من أن يشعروا بانهم أحرار في التعبير عن فكرهم، وهو ما يسميه هيرماس بالوضعية المثالية للكلمة "situation idéale de la parole".

من هنا وجب ترسيخ بعض القيم الضرورية التي من دونها، لا يمكن عمليا إيجاد ذلك الفضاء المثالي للكلمة ، وعلى راس هذه القيم العدالة. اذ كيف يمكن على سبيل المثال أن نصل الى افضل برهان اذا منعنا احدا من المشاركة في النقاش والمحادثة؟ والقيمة الثانية الضامنة لهذا الفضاء هي قيمة التضامن "solidarité". اذ كيف يمكن بلوغ الإجماع من دون المشاركة ومساهمة الجميع في البحث؟ والقيمة الثالثة هي المسؤولية المشتركة "co-responsabilité". اذ كيف يمكن أن نعتبر أن كل واحد من جماعة البحث يتحمل المسؤولية اذا لم تكن هنالك مشاركة من قبل الجميع ؟

على أن الذي يجب الانتباه اليه، وهو أن اقامة جماعة البحث، لا يمكن فصلها عن العالم والمجتمع وعلى تنظيم اجتماعي معين، مما يؤدي الى طرح مسائل سياسية واخرى اخلاقية للحوار، فالمدرسة على سبيل المثال مؤسسة اجتماعية وسياسية واخلاقية. من هنا فان الحوار والمحادثة بالنسبة الى أي فاعل في جماعة البحث، يعد ضروريا لتأكيد الذات واثبات الهوية وبلوغ منزلته كفرد ضمن مجموعة، واقامة علاقة مع الجماعة. وهنا يدخل مفهوم الفعل التواصلي بوصفه فعلا بينيا ، بين اكثر من فرد، ويؤدي إلى التفاهم المشترك، القائم على الاعتراف المتبادل<sup>(38)</sup>.

M.Sasseville, La pratique de la philosophie avec les enfants, Québec, Les Presses de .38  
.l'Université Laval, 2003

## 2 . في السياسة :

كما يظهر الوجه الآخر للطابع العملي للحوار والتواصل، في المجال السياسي وخاصة في فكرة هيرماس حول "الديمقراطية التشاورية Démocratie deliberative او التداولية"، التي تقوم على مبدأ التشاور والتداول، بوصفه مبدءا وشرطا ضروريا للديموقراطية.

وفيد التشاور، الحوار والنقاش والمحادثة، ثم الاختيار وأخيرا التقرير او الإقرار. على ان السؤال الذي يطرح دائما هو من يتحدث؟ ومن يختار؟ وكيف يحدث هذا التشاور او التداول؟ لا شك ان الإجابة على هذه الاسئلة، متعددة بتعدد النظريات السياسية. وفي نظر فلسفة الحوار والتواصل، فان دولة القانون، تكون شرعية عندما تقوم بمختلف الاجراءات والقرارات على الارادة الجماعية.

لذا يتخذ التشاور العقلي، صفة الضامن لشرعية القرارات السياسية والاجتماعية المتخذة، ومما لا شك فيه، ان هذا الشكل من الديمقراطية التشاورية، يميل بطريقة غير مباشرة الى ما سبق وان دعت اليه نظرية العقد الاجتماعي، عند مختلف منظريها من هوبس الى كانط.

ذلك ان الشرط الاساسي للتشاور، هو المساواة، وعدم استعمال القوة او عدم اللجوء الى القوة، اللهم الا الى تلك القوة التي وصفها هيرماس بـ(القوة الضعيفة لافضل دليل Faible force du meilleur argument). لان هذا التشاور، يتم من خلال الحجج العقلية، بغية الحصول على افضل المساهمات الممكنة لحل المشكلات القائمة.

**خاتمة:**

وختاماً، فانه سواء قلنا بالحوار او بالتواصل او بنظريات الحوار والتواصل او حتى بفلسفات الحوار والتواصل، فاننا نهدف الى اقرار حقيقة مفادها ان الحوار قاعدة اخلاقية للافراد والجماعات والمجتمعات، وان لا قيام للمجتمع التواصلي دون قناعة الافراد بارادتهم الكاملة والحرّة في الحوار كقاعدة لحل مشاكلهم، وان من مسؤولية الدول والحكومات ان تجعل من سياسة التواصل والحوار منهجا لحل المشكلات على راسها المشاكل التربوية ومختلف النزاعات السياسية.

صحيح ان هذا المسعى يظهر من الوهلة الاولى متعارضا مع الواقع وبعض معطيات التاريخ، اذ يكفي التذكير بما تشغله الوقاحة ومختلف مظاهرها من خداع وتحايل وكذب، وما يشغله العنف والحرب والقوة كوسيلة لحل الخلافات والنزاعات. الا انه لا حل لمعرفة الحقيقة، ولا حل للعنف ولا للحرب الا عبر الحوار، وان مآل الحرب والعنف هو الحوار.

من هنا، كان للحوار والتواصل مكانة مميزة في الفلسفة المعاصرة، تظهر في طابعه البيني والتعددي، واستناده الى نظرية تاسيسية في فلسفة اللغة، الا وهي نظرية الافعال الكلامية، وعلى نتائج اللسانيات والمنطق، وعلى دور الإعلام ومختلف التقنيات المستعملة في التبليغ والتواصل.

كما يبين قدرة الفلسفة المعاصرة على تجديد مباحثها وقضاياها ومناهجها، وهو ما يظهر في المصطلح الفلسفي الجديد وفي مختلف النظريات المتعلقة بالحوار والتواصل والمحادثة، ودرجة مساهمتها في حل المشكلات المطروحة على مجتمعاتنا المعاصرة.